

الحملة الصليبية الإثيوبية "الناعمة" على الصومال



هذا المقال ترجمة لمقال نشره بالإنجليزية، محمد حاج دوبلي، صحفي مستقل مقيم في نيروبي، كينيا.

في شرق إفريقيا، لم تقتصر الأضرار التي أعقبت المعارك العملاقة التي دارت بين المملكة الإثيوبية للحبشة، وبين سلطنة عدل المسلمة في 1529-1543م، على ساحات القتال، لكنها أضرت بأفكار إثيوبيا تجاه الصوماليين، وبعد ما يقرب من خمسة قرون، لم تنحسر تلك المشاعر القديمة أبدًا، ولا يزال صدى القول بأن الصومال جزء من إثيوبيا يتردد على الرغم من انتهاء الحرب لصالحهم.

أشار هيلدا سيلدسي في حزن، إلى الحرب بين الحبشة- وسلطنة عدل قائلا: "... وكأن هذه الكوارث حدثت بالأمس فقط"¹؛ لقد أظهر شغفًا بالثأر الذي لا يقبل أقل من التفكيك الكامل للصومال. سعت إثيوبيا على مر السنين، إلى منهجيات مختلفة بما في ذلك القوة العسكرية كوسيلة والمبدأ الاستعماري القديم "فرق تسد" لإنهاء وجود أي نظام سياسي صومالي. تحت تأثير الأحداث التاريخية بما في ذلك حربي 1968 و 1977، ترى إثيوبيا أن الصومال يشكل تهديدًا لوجودها، ونتيجة لذلك، فقد قوضت العديد من عمليات المصالحة بما في ذلك اتفاق "القاهرة" 1997 واتفاقية "عرتا" لعام 2000. وقد أوضح محمد أسد ببلاغة هذا التخوف الكاذب في كتابه "مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام": حيث قال: غير المسلمين "... يخافون من إحياء الروح الإسلامية، كما يتجلى في فكرة الدولة الإسلامية، قد تعيد إحياء القوة النائمة للمسلمين وتدفعهم إلى مغامرات عدوانية جديدة في اتجاه الغرب".

لا تقتصر العوائق أمام النظام السياسي الإسلامي بالضرورة على مشروع الدولة الإسلامية ولكن أي شيء له رائحة إسلامية. لقد دفع الخوف الحكومة الإثيوبية إلى دفع حربها إلى عمق الصومال. من الواضح أن هذه حملة صليبية ناعمة، وغياب

¹ بول ب. هينز (2002). طبقات الوقت: تاريخ إثيوبيا. هيرست وشركاه. ص. 90.

لافتات مينليك المنقوشة بشكل متقاطع يعني ببساطة أنها تبنت نهجًا أكثر ليونة، لكن العقيدة الأساسية التي حرّضت على غزوات مينليك لا تزال نفسها.

السبب الجذري

لم يكن الحكم الرشيد أبدًا كبرياءً وطنيًا، لكن لم يكن بإمكان أحد أن يتنبأ بأن الضغائن القبلية القديمة كان من الممكن أن تدمر أمة بهذه الكثافة التي طغت على الاتفاقيات التقليدية والمراسيم الدينية. مثل الثوران البركاني، تم إطلاق المشاعر القبلية المختنقة بشدة مما أدى إلى مشاكل التجديد الذاتي. على الرغم من أن الاستياء المتصاعد يتم تفريغُه الآن بمعدل أقل وبكثافة أقل، يمتلك هذا الصراع عنصرًا طبيعيًا من عدم القدرة على التنبؤ فيمكن أن ينفجر في أي وقت.

القبلية تحاصر العقل البشري بسرعة للوقوع فريسة لأي شعارات مغلوطة، مهما كانت غير عقلانية، والحرب الأهلية هي مثال رئيسي حيث تم تحريض المشاركين بمغالطات عاطفية لا تقاوم. في 21 أكتوبر 1969، تولى سياد بري السلطة في انقلاب أبيض بعد اغتيال الرئيس شارماركي. كقومي رغم أنه يفتقر إلى القدرة الإدارية على القيادة؛ كان مبدأه الإداري هو مكافأة مؤيديه بالمزايا بينما يتم التعامل مع المعارضين بإجراءات عقابية بما في ذلك الإعدام. لقد بنى مؤسسات البلاد، وبالمثل، ارتكب أعمالاً وحشية واسعة النطاق ضد ناخبيه بما في ذلك القصف الجوي. وأخيرًا، في عام 1991، أطيح به من قبل الجماعات المتمردة القبلية المدعومة من إثيوبيا، مما أجبره على الهروب إلى المنفى. على الرغم من أن هذه الميليشيات القبلية كانت منخرطة في أعمال التضحية وغالبًا ما يتم تأبين أبنائها كشهداء، إلا أن الدافع لم يكن لصالح الشعب أو الأمة، بل لحماية المصالح القبلية الدخيلة والمعالم العشائرية غير الحكيمة. وعند حصولهم على السلطة، لم يكونوا

مجهزين بالمهارات السياسية للحكم ولا يمتلكون التواضع للتنازل عن عدم كفاءتهم، وبالتالي، أدى تمردهم إلى الفوضى وأرسى الأساس لطموحات خارجية ربما دون أن يعرفوا ذلك.

السبب الرئيسي لسقوط الصومال هو أن المحتلين الأوروبيين قد جلبوا مبادئ غريبة ووضعوا الأساس على مذاهب تتعارض تماماً مع المثل الإسلامية. وعلى مر السنين، تم العبث بطريقة الحياة التقليدية المتميزة وذات السيادة بالمعايير الأجنبية وتحويلها إلى نسخة مشتقة بالكاد تشبه شكلها الأصلي. ومن ثم، فقد تم التخلي عن طريقة الحياة التاريخية ولم يتم استيعاب المخطط الجديد بالكامل مما تركنا في منطقة رمادية تقودها الجاهلية. إن الإخلال بالنظام الزمني الجوهري للناس من خلال فرض أنماط حياة غريبة غير مألوفة، على الرغم من ملاءمتها للأدوات الخارجية، هو أمر غير عادل وينتج عنه آثار غير مرغوب فيها خاصة إذا كان المديرون والرعاة ليسوا مترابطين عقدياً؛ إن القصور الروحي، والانحلال الثقافي، والانحدار الاجتماعي، والاضطراب المدني الرهيب الذي أعقب ذلك يعكس عدم توافق البروتوكولات المستوردة.

الحملة الصليبية الاثيوبية

مع انهيار الحكومة المركزية الصومالية في عام 1991، أصبحت طموحات إثيوبيا أكثر قابلية للفهم حيث تمت إزالة العوائق التقييدية بشكل إيجابي، وكان عدم وجود أي اتفاق اجتماعي وديني بين القبائل المتناحرة بمثابة حافز لقضيتها. ونتيجة لذلك، تدخلت الدول المجاورة في شؤون الصومال كمحكمين قبليين و"حفظة سلام" مستغلين بذكاء الطابع غير المقدس للصوماليين لصالحهم، والقبالية.

واستخدام الأوتاد السياسية لتقسيم الأمة إلى مناطق أصغر مطيعة شبه مستقلة. والمخطط المصاغ له جبهتان:

أولاً: الاحتلال العسكري تحت غطاء الإرهاب الذي يمنحهم القناع السياسي والمبرر المقبول لنشر قوات في الصومال بدعوى "ملاحقة المنظمات الإرهابية". يتمتع هذا التعبير المفتعل غير المتصل بالمرونة السياسية لتشكيل أشكاله وفقاً لمصالحهم بشكل مناسب، وكمسلمين، من الصعب للغاية تجاوز التوصيفات التي تدل عليها. كما [كتب جمال عثمان](#) من بي بي سي، تصور إثيوبيا نفسها بشكل درامي على أنها أمة مسيحية يرهبها جارها المسلم، وشريك مخلص في "الحرب على الإرهاب" متخصص في التعامل مع الشؤون الصومالية المزعجة. وقد تجاوزت كل اللوائح المقيدة، فقد اكتسبت زمام الحرية لدفع أجندها الخاصة داخلياً مع تصوير وجودها في الصومال على أنه مهمة دولية مُحفوفة بالخطر وتستحق دعماً سخياً.

في أواخر عام 2006، سنحت الفرصة بالتعاقد مع الولايات المتحدة للتدخل عسكرياً لدعم الحكومة الفيدرالية الانتقالية ضد اتحاد المحاكم الإسلامية الذي كان يسيطر على جزء كبير من جنوب الصومال. تم طرد اتحاد المحاكم الإسلامية وأعدت حركة الشباب، الجناح العسكري لاتحاد المحاكم الإسلامية، تجميع صفوفها وحققت انتصارات عسكرية ضد الإثيوبيين مما أجبرهم على الانسحاب في يناير 2009. وفي يناير 2014، [تقاطعت إثيوبيا](#) عبر المقاطعات الحدودية مع ولايتها الخاصة، وانضمت رسمياً إلى بعثة الاتحاد الأفريقي مع جنود كانوا موجودين بالفعل في البلاد. تحت ظل الحرب على الإرهاب، فإن احتمال استعادة ما تعتبره إثيوبيا "دولة متمردة" وإعادتها إلى الاتحاد الفيدرالي أمر ممكن عملياً. بوجود حذائها داخل البلاد، نضج الطموح من معلومات سرية للغاية إلى هدف يمكن تحقيقه، ولم يعد السعي وراءه سياسياً وعسكرياً أمراً مشكوكاً فيه. أعلن رئيس الوزراء الإثيوبي السابق، هايلي مريام ديسالين، عن تقرير التقدم الذي ذكر أن قواته تحتل "... أكثر من 60 في المائة من الأراضي

الصومالية"، وأن المناطق المستقرة نسبياً تخضع لسيطرتة عن طريق تحريف سياسي تم تحديده على أنه تعاون.

ثانياً: الشرعية القانونية. عقد اتفاقات خادعة مع سياسيين صوماليين لتظهر أن عملية الضم تمت ضمن الإطار القانوني. أنتجت الحرب الأهلية نوعاً جديداً من السياسيين الذين تفوق مصالحهم الشخصية المسؤوليات المناطة بهم. إنهم منغمسون بشدة في الجشع الذي يتجاهل جميع المهام ومع ذلك يتحدثون عن الصومال تحت ستار الشغف. ونتيجة لذلك، فإن الصومال هي [أكثر دول العالم فساداً](#)، وفي بعض الأحيان، لا يمكن إصلاح التداخيات. على سبيل المثال، في أوائل التسعينيات، وفقاً لصحيفة فامبغيا كريستيانا الإيطالية، اتفق الرئيس المتوفى علي مهدي محمد مع الشركة السويسرية "أشار برتنارز" وسمسار النفايات الإيطالي "بروغريسو"، على تفريغ أطنان من النفايات السامة في الصومال مقابل مبلغ كبير من المال. ["بدلاً من دفع 1000 دولار، يمكنك إلقاء النفايات السامة في المياه الصومالية مقابل 2.50 دولار للطن فقط!"](#) وقدم الحزب الأخضر الأوروبي نسخ العقود إلى البرلمان الأوروبي التي وقعتها الشركتان المتورطتان ونور علمي عثمان (وزير الصحة الصومالي في ذلك الوقت) الذي وقع الاتفاقية نيابة عن علي مهدي محمد.

نجحت إثيوبيا في تحقيق أهدافها عسكرياً وسياسياً، وهي تعتبر الصومال دولة محتلة، وهي على بعد خطوات قليلة مهمة من ضمها. بعد التوقيع على تسليم الموانئ البحرية الصومالية الرئيسية لإثيوبيا في 16 يونيو 2018، ضغط الرئيس السابق فرماجو والإدارة الحالية لدمج الصومال مع إثيوبيا في نظام كونفدرالي.

عادة، عندما تكون ملكية الأرض على وشك التغيير إلى نظام حكم غريب ثقافياً، تظهر عقيدة جديدة بضمير أخلاقي جديد، وفي كثير من الأحيان، تعدل الفلسفات الجديدة بشكل غير محسوس العادات المحلية وتنقح جذورها العقدية ومواقفها الفكرية. يكشف الواقع الجديد عن نفسه تدريجياً ويظهر على أنه القاعدة الجديدة دون معارضة. على الرغم من أن

النظام الكونفدرالي ليس رسمياً بعد، إلا أن المخطط الجديد موجود بالفعل. لقد انتشرت قناعات إثيوبيا الفكرية في الإدارات الإقليمية شبه المستقلة لدرجة أن الاحتفال باليوم الوطني الإثيوبي يتم الاحتفال به في هرجيسا وغاروي، وبمرور الوقت، سيتم إخفاء القيم الثقافية والدينية للصومال. وإذا استمر هذا الاتجاه، مثل إسبانيا (الأندلس)، فلن يتم تذكر الصومال إلا في كتب التاريخ.

دروس من إسبانيا (الأندلس)

مؤخراً، صادفت كتاب ستانلي لين بول، "المغاربة في إسبانيا"، ووجدت التشابه بين إسبانيا في ذلك الوقت والحالة السياسية الحالية في الصومال مذهل بشكل لا يصدق. كانت إسبانيا في عصر ذهبي وفي عصر التنوير الحقيقي، ولكن على مر السنين، طغت المحسوبية والممارسات الخبيثة على النجاح واستمرت في الإضرار بوجود الدولة. نتيجة لذلك، انتهت الخلافة الأموية عام 750 تلاها ملوك صغار مستقلون. لاختزال تاريخ طويل، كانت إسبانيا في حالة فوضى تامة. بذل الملوك الصغار جهداً كبيراً للتغلب على بعضهم البعض، لكن جهودهم الفردية لم تكن كافية لمقاومة القوات النصرانية الإسبانية الموحدة "... لقد أهدروا قوتهم على بعضهم البعض، حتى أن أحدهم كان يعترض جيش الآخر أثناء مسيره ضد العدو المشترك". في عام 1260، تم إخضاع الملوك الصغار وفقدت معظم أراضي المسلمين إما عن طريق الغزو العسكري أو من خلال اتفاقيات خادعة باستثناء غرناطة. وفقاً للمؤلف، كانت جيوش فرديناند وإيزابيلا عند أبواب غرناطة في نهاية عام 1491، ولم يكن الحاكم، محمد أبو عبد الله، المعروف أيضاً باسم "أبو عبديل" في الغرب، من الخيارات. لقد احتاج إلى مساعدة المغرب، لكنه خاف من أن يطيح به

منقذوه، ويحتجزوه كرهينة، ولم تأت المساعدة التي طال انتظارها من تركيا أو مصر. لذلك، استسلم مقابل ممر آمن.

كانت خسارة إسبانيا بسبب اللعنة العربية. فالعرب متحفظون في الشخصية، وشجعان بطبيعتهم، وهم كرماء للغاية كما هو العرف، لكن الجانب السلبي هو أنهم يمتلكون شخصية شبيهة بالبندول تتأرجح بين الغضب والود ولا تعرف أي تنازلات. وفقاً للمؤلف، أثناء غزوهم العسكري، كان هذا المزاج مقيداً ببساطة ولكنه لم ينطفئ تماماً، ولو أنهم عزلوا أنفسهم حصرياً في شبه الجزيرة العربية، لكانت أمتهم قد انهارت في أي وقت من الأوقات لقدرتهم الفكرية على حل نزاعاتهم الأخرى بالسيف. إنهم يتشاركون لغة وثقافة تقدمية ويؤمنون جميعاً بالإسلام كدين، وعلى الرغم من أنهم ظاهرياً يبدون شعباً متجانساً، فإن هذه العوامل الموحدة التي لا حياة لها لن تكون مجددة إذا تم التذرع بروح القبيلة. عندما وضعوا الخلافات التافهة جانباً، سيطروا على إسبانيا وما وراءها، وعلى العكس من ذلك، عندما استسلموا للعناصر المتعصبة للقبيلة، انهاروا مثل بيت من ورق. الأشخاص الذين اشتهروا بعظمتهم وبراعتهم أصبحوا معروفين الآن بالجهل والعجز. وبالنسبة للصوماليين الذين يعانون من متلازمة العداة القبلي، فإن هذا درس لا يقدر بثمن.

خاتمة

بدون مبالغة، الصومال على وشك أن يتم ابتلاعها تماماً، وما يقلق الكثيرين هو احتمال انتصار إثيوبيا. وما كان يوماً ما حلماً بعيد المنال أصبح الآن في المجال العام للمناقشة لتبديد شعور الناس بالوطنية والاستمالة النفسية للتلاعب بالجماهير بطريقة تتماشى مع أجندتهم الإمبريالية.

إن أي شكل من أشكال المقاومة لهذا التعدي على السيادة الإقليمية للصومال واستقلاله السياسي يوصف دائماً بأنه إرهاب. و استغلت إثيوبيا مثل إسرائيل، بشكل واضح، عامل الخوف هذا لصالحها مما أدى إلى صمت تام بين السياسيين، وكالعادة، فإن أصحاب الأرض منشغلون بشكل سيء بشؤونهم الخاصة.



تمثال للسيد محمد عبد الله حسن

الحل لهذا التهديد الوشيك يكمن في طريق أبطالنا الأسطوريين أمثال أحمد جري، والسيد محمد عبد الله حسن، والشيخ حسن برسومي. ليس بسبب إمكاناتهم الحربية ولكن محاولاتهم النبيلة للحفاظ على فلسفة دينية مهددة من قبل الإرساليات الكاثوليكية، لاستعادة الأراضي التي نُهبت مواردها الطبيعية من قبل القوى العالمية، وتحرير الأشخاص الذين استخدمت كفاءاتهم في مشاريع توسعية. وعلى الرغم من إخضاع انتفاضاتهم من قبل قوى عظمى متفوقة، إلا أن إرثهم تجاوزهم، ولا يزال مفهوم المقاومة ضد الغزاة الأجانب والتضحية بالنفس من أجل قضية نبيلة قائماً. ونأمل أن يظهر المنقذ بشكل غير متوقع.

وكما تتفق صفحات التاريخ ، فإن الصومال لديها سجل ثابت في هزيمة الإثيوبيين: فأحمد جوري، بصفته قائداً عسكرياً لسلطنة عدل المسلمة، غزا ثلاثة أرباع الإمبراطورية الحبشية خلال الحرب الحبشية- مع سلطنة عدل في 1529-1543.² في التاريخ الحديث، لم يكن البريطانيون ولا الإثيوبيون فعالين بشكل فردي في صد رجال السيد محمد عبد الله الحسن، الدراويش، خلال فترة حكمه من 1900-1921، مما أجبر مينليك على اقتراح عملية مشتركة مع البريطانيين ضدهم. في حرب أوجادين في عام 1977.

لقد طغى سياد بري على القوات الإثيوبية بجيشه الثوري الذي لا مثيل له وقضى عليها بشراسة قبل أن يتراجع بسبب التدخل العسكري للاتحاد السوفيتي. وحتى القوات شبه العسكرية غير المجهزة لاتحاد المحاكم الإسلامية أرغمت أنوف القوات الإثيوبية في التراب أثناء تدخلها العسكري 2006-2009. لذا، فإن التوغلات العسكرية الإثيوبية الحالية في الصومال هي ببساطة حلقات مختلفة من الحرب نفسها.

أخيراً، لا ينسب معظم الصوماليين أي جهد إلى تهديد وشيك يلوح في الأفق على الرغم من دعمهم الثابت لمفهوم درء العدو. وبدون مقاومة، ستكون النتيجة نتيجة أبو عبيد، حاكم غرناطة. قبل الرحيل الأخير، نقل عنه قوله: "الله أكبر!، "الله أكبر" بدموع العين. فوقفت والدته عائشة بجانبه وقالت: "نعم، ابك كالنساء ملكاً لم تدافع عنه كالرجال". وعاش نسله في المغرب كمتسولين. وإذا كانت هناك أي طريقة أخرى غير المقاومة المسلحة، لكان الفلسطينيون قد استعادوا أرضهم منذ زمن بعيد.

² سهد أ.أديجوموبي، تاريخ إثيوبيا، (غرينوود برس: 2006)، ص 178.

